الأدب فى روسيا

أدب الجرأة والحياة

يجرى فريق من النقاد الغربيين على طريقة مبتكرة لتعريف الآداب وتمييزها من بعضها ؛ فهم لا ينسبون الأدب إلى اللغة التى يكتب بها ، جرياً على القاعدة التى نتبعها حتى اليوم ، بل يعمدون إلى أظهر ميزات أدب من الآداب فيعرفونه بها ، ولما كان لكل أدب ميزة خاصة كانت هذه الطريق شبه مأمونة ، لانخشى منها لبس ولا عثاراً إلا فيما ندر .

وهكذا أصبحنا نطالع فصولا ممتعة فى أدب « الرقة والظرف » لا فى الأدب الفرنسى ، ونقرأ بحوثاً عن أدب « البلاغة والمتانة » لا عن الأدب الانجليزى ، ونستظهر متوناً من أدب « القوة والجبروت » لا من الأدب الألمانى . . . . ولو جرينا على هذه القاعدة ، لجاز لنا أن نحدث قراء « المعرفة » الغراء ، عن أدب « الجرأة والحياة » لا عن الأدب الروسى !

وإذا كان أولئك النقاد قد وفقوا بعض التوفيق فى الأدب الفرنسى والأدب الانجليزى والأدب الألمانى ، فإنا لنحسبنا وفقنا كل التوفيق فى تعريف الأدب الروسى ، والأدب الروسى الحديث خاصة ، فهو أدب « الجرأة » وأدب « الحياة » معاً ، ولكنه أدب الحياة أكثر منه أدب الجرأة ، لأنه مطلق فى الأولى مقيد فى الثانى .

ليس من شك أن الأدب الروسى جرىء وجرىء إلى حد بعيد ، سواء فى ذلك المواضيع التى يطرقها ، والمذاهب التى يبشر بها ، والأساليب التى يلجأ إليها ، ولكنه رغم هذه الحرية يرتجف فرقاً من شبح سلامة الدولة والتآمر على قلب النظام الاجتماعى الحالى ، فهو يستطيع أن يطرق كل موضوع ، ويستطيع أن يقول فيه كل مايريد ، إلا أنه لايستطيع أن ينقد ، بل يستطيع أن يذكر النظام الراهن فى البلاد الروسية — اجتماعياً كان أم إداريا — بكلمة اللهم إلا إذا أراد الإطناب فى مدحه ، والإغراق فى حرق البخور لرجاله وعوائده .

وإذا فجرأة الأدب الروسى ليست جرأة مطلقة ، وإنما هى جرأة نسبية ، تقيدها المصلحة العامة بقيود ثقيلة ، ولكنها على كل حال جرأة طموحة تفتتح لها فى كل يوم وفى كل ساعة ميادين جديدة ، وساحات لاعهد لها بها من قبل .

وهو أكثر من ذلك كله ، أدب « الحياة » ، لاحياة الأبهة والزخرف ، بل حياة البساطة

والسذاجة ، حياتك وحياتي وحياة أكثر الناس ، إن لم نقل جميعهم ، الحياة العارية عن كل زينة ، البعيدة عن كل كلفة ، الغريبة عن كل تصنع !

ويكاد الأدب الروسي يرسم لنا هذه الحياة العادية رسماً لا يفضله الرسم الفوتوغرافي بشيء، وإنما يقصر عنه ، بما في الأدب من صور نفسية ، وحالات فكرية لا تقوى عدسات المصور على التقاطها ، ويبرع اليراع في تمثيلها براعة تختلف باختلاف مقدرة الكاتب ومهارته .

والأدب الروسي من هذه الناحية أدب صحيح بكل ما في هذا الوصف من مدلول ، لأن الأدب الصحيح ينبغي أن يكون ظلاً للحياة ، يماشيها ويعكسها في أمانة وصدق ، وفي صراحة وجرأة ، وينبغي ألا يقصر فصوله على طبقة من الطبقات ، أو ناحية من النواحي ، كما يفعل غيره من الآداب ، بل أن يشمل بحثه جميع الطبقات وأن يعنى بها جميعاً عناية متساوية متعادلة .

وليس بين الآداب الغربية أدب تتوفر فيه هذه الشروط أكثر من الأدب الروسي ، أو مثله ، ولعله من هذه الوجهة أصح الآداب الأوروبية وأصدقها .

— ٢ —

ويتسم الأدب الروسي الحديث بالبساطة في المعاني لا الأفكار ، وهذه البساطة نستطيع أن نلتمسها في الصحف والمجلات ، كما نستطيع أن نتلمسها في المؤلفات الأدبية والعلمية ، فهي أكبر ميزة للأدب الروسي ، حتى لتكاد تعرفه تعريفاً تاماً ؛ فهو أدب رائق صاف ، لا تعقيد فيه ولا إبهام ، ويندر أن تقع فيه على كلمة غريبة ، أو استعمال مهجور ، لأن الكاتب الروسي ، يصرف جل عنايته ليكون في متناول جميع الطبقات ، ولا يفتقر أحد — حتى طلاب المدارس — لمراجعة القواميس أو كتب اللغة لفهم ما يطالع ، ولا شك أن هذه البساطة أدت أعظم الخدمات للأمة الروسية ، لأنها كانت أقوى عامل على نشر العلم والأدب بين جميع أفرادها ، وهكذا ازداد عدد القراء وازداد ربح حملة الأقلام ، وازداد إخلاص الكتاب لمهنتهم ، فأخذوا ينظمون صفوفهم ويوحدون غايتهم ، فكان لروسيا في زمن غير طويل ، الشعب الذي أراده لها زعماؤها وعواملها .

وهنالك ظاهرة قوية تطل عليك بين السطور ، وهي الرغبة في الإصلاح الدائم المتواصل معاً ، الذي يجعل — أو بالأحرى يحاول أن يجعل — نظام اليوم خيراً من نظام الأمس ، ونظام الغد خيراً من نظام اليوم !

ولست أدري أي الخصائص تفتن المطالع وتغريه على إدمان المطالعة ؟ ولكني أعلم وأعترف أني لم آخذ كتاباً روسياً إلا أتيت على آخره في جلسة واحدة ، ولعل غيري من محبي الأدب الروسي يشعرون مثل شعوري هذا .

وأنت تستطيع أن تتناول ما يقع بين يديك من المؤلفات الروسية ، وتستطيع أن تبحث فيها، وأن تبحث فيها جيداً جيداً فلا تقع على أثر لما تجده فى بعض الكتب الغربية من خلاعة وتهتك وجور ، لأن المراقبة على المطبوعات شديدة ، لا تعرف رفقاً ، ولا تلجأ إلى لين .

وهـذا لا يفيد أن الأدب الروسى خال من كتب تبحث فى المسائل الجنسية ، وتشرح فسيولوجية العمليات التناسلية ، فهـذه المؤلفات أكثر مما نجدها فى البلاد الروسية ، ولكنها مؤلفات علمية ، وعلمية خالصة تبحث هذه الأمور الخطيرة بصراحة واحتشام ، وهـذا ما يفرقها ويميزها من غيرها من الكتب التى تطرق هذه المواضيع ، لا خدمة للعلم ، بل لاستثارة تعواطف وإلهاب المشاعر .

— ٣ —

للأدب الروسى أنصار ، ولهؤلاء الأنصار عقيدة أو شبه عقيدة فى مكانة الأدب الروسى الحديث ، لا تزعزعها آراء ناقد مهما عظمت شهرته ، وقد كنا نعتقد أن الظفرة محال ، ولكن فزعزعت عندنا هذه العقيدة ، لأنا ألفينا أنفسنا إزاء أدب اجتاز فى أعوام قليلة ، وقليلة جداً الى عمر الآداب ، ما لم يجتزه غيره فى مئات السنين ، ولقد كان تطوره هذا شبه سلسلة من القفزات ، يندر أن يقوى على بعضها أقوى الآداب الغربية وأنشطها .

وربما كانت قفزته الأخيرة — وهى التى أعقبت الحرب الكونية — أشد تلك القفزات خطورة وأبعدها أثراً فى الآداب العالمية كلها لا الأدب الروسى وحده ، لأنه إذا كان يتأثر بغيره من الآداب ، فهو يؤثر فى أكثرها أضعاف هذا التأثير .

ولا أشك لحظة أن الأدب العربى نفسه تأثر بالأدب الروسى الحديث ، عن طريق الأدب الفرنسى فى الدرجة الأولى ، والأدب الإنجليزى فى الدرجة الثانية ، وما هذه المجلات الجريئة التى انتشرت فى القاهرة وفى بيروت فى السنوات الأخيرة ، إلا أنصع دليل على هذا التأثر غير المباشر .

وقد تبدو آثار الأدب الروسى الحديث أكثر جلاء وأشد وضوحاً فى الأدب العربى عندما تستقر حرية الفكر فى الشرق العربى استقراراً تاماً غير منقوص .

— ٤ —

ويعد الكاتب الروسى من أسعد الكتاب حظاً فى العالم ، لأنه إذا عرف كيف يدير قلمه بين أنامله ، يستطيع أن يربح أرباحاً طائلة ، قد لا يحلم بها حتى فحول الكتاب والمؤلفين فى غير بلاد « الفردوس الأرضى » .

ولعل الأرقام أبلغ مايكون فى هذا الميدان ، لأنها تدل بوضوح على مبلغ السعة التى يتمتع بها الكاتب الروسى الراضى عن الحال الراهنة ، لا الناقم عليها ، وبعبارة أوضح ، الكاتب الذى يطبل ويزمر للنظام الاجتماعى الحالى فى روسيا ولا يذكره إلا بالمديح والإطراء . فبينما راتب العامل المتوسط يتراوح بين المائة وخمسين والثلاثمائة روبل فى الشهر ، وبينما راتب الطبيب يتراوح بين الثلاثمائة والأربعمائة روبل فى المدة ذاتها ، يبلغ ربح الكاتب — والكاتب المتوسط — ألفين روبل ، تنهمر عليه من حقوق التأليف فقط ! ... وفى شهر واحد !!

وقد يرتفع هذا الربح عند كبار الكتاب ، فيبلغ ستة آلاف وسبعة آلاف روبل !

وربما كانت مهنة النشر والتأليف أربح المهن فى روسيا ، ولكنها — فى الوقت ذاته — أضيقها حرية ، لأن الكاتب يجب أن يرضى زعماء روسيا ، قبل أن يرضى وجدانه ، وقبل أن يرضى قراءه . وويل وألف ألف ويل لمن تحدثه نفسه بكتابة كلمة نقد للنظام الحالى فى روسيا ! !

ولهذا السبب انصرف عدد غير يسير من أعظم كتاب روسيا عن التأليف ، لأنهم ناقمون على الحالة الحاضرة ، ولا يستطيعون أن يظهروا نقمتهم على صفحات الجرائد ، أو يضمنوها بطون الكتب ، ولعلهم يتحينون الفرص ليصارحوا مواطنيهم بما يضمرون .

وأرجح أن مانطالعه فى صحف الغرب من طعن فى نظام روسيا الحالى ، مكتوب أكثره بأقلام روسية ، أو بإيحاء من رجالات روسيا الناقمين ، وإن لم يكن مهوراً بتواقيع روسية ، ولا أدل على ذلك من بعض التفاصيل الدقيقة ، التى لا يعقل أن يطلع عليها غير الروسيين الأفحاح .

— ٥ —

ويترأس الحركة الأدبية فى روسيا شبان متحمسون ، يقدسون الحالة الراهنة فى بلادهم ويبالغون فى إطرائها ، وتكاد جهودهم تنحصر فى إصلاح النظام الحالى ، دون التعرض لجوهره .

ومن أبرز هؤلاء : الكاتب الاجتماعى الشهير « كيرشون Kirchon » فهو أنشط حملة الأقلام فى روسيا دون منازع ، لا تراه إلا كاتباً ولا تسمعه إلا خطيباً ، وقد يدهشك أن تعلم أنه لا ينتظر محررى الصحف غير الروسية ليسألوه عما يرغبون ، بل يذهب إليهم ويبحث عنهم ليطلعهم على ما يريد لا ما يريدون!

وهو سكرتير « جمعية الكتاب العمال » وله مؤلفات عديدة على جانب غير يسير من الأهمية ، ولعل خيرها مؤلفه عن « الخبز » الذى لاقى رواجاً عظيماً ، بحيث نفدت نسخه ، أو كادت ، بعد شهر واحد من ظهوره .

ولا يتسع لنا المجال لذكر كبار الكتاب الروسيين فى الوقت الحاضر ، وإنما نكتفى

بالإشارة إلى بعضهم ؛ فهنالك الشاعر الكبير « إيفانوف Ivanoff » يذكى أفئدة الشبان بما يكتبه لهم من شعر مرسل على طريقة محدثة ، أحسب أن بعض كتابنا الخياليين يقتبسون عنها ، وينسجون على منوالها ، بعايطالعونه منها فى الأصل أومترجماً إلى لغة أخرى . ويساعده فى مهمته كثير من الكتاب الكبار أمثال « ليونيد Leonid » و « اليونوف Leonoff » و« سيلفانسكى Silvenski »و« بامفيروف Pamphiroff »و« انا كار افينا Anna Karavéva »

ومن المستحسن أن لانغفل ذكر النوادى الأدبية فى روسيا ، فهى من الرقى بمكان بعيد حتى إنه لايعهد برئاسة ناد من النوادى إلا لكاتب عظيم ، أومؤلف خطير ، ليدير حركة الأدب ويشجع من يستحق التشجيع من الشبان الناشئين .

وهكذا فإن روسيا لا تدع رئاسة مؤسسة من المؤسسات الخيرية والاجتماعية والعلمية والسياسة ، إلا لزعيم من زعمائها ، ولزعيم مخلص بلغ حب روسيا منه أقصى حد ، بحيث لانؤثر فيه دعاية ولا نستثيره مآخذ .

— ٦ —

ويعهد بتدريس الآداب فى المدارس الثانوية والعالية إلى كتاب قديرين ، لهم فى عالم الأدب مكانة محترمة ، وفى عالم التأليف مقام رفيع ، ويندر جداً أن نجد أستاذاً للأدب ليس له بين أدباء روسيا ذكر نابه أو اسم معروف .

ويمرن الطلاب على الكتابة والخطابة بإرشاد أستاذ الأدب وتدريبه ، فهو يلقى لهم المواضيع ، ولكنه يترك لهم ملء الحرية فى معالجتها ، وكثيراً مايرشدهم إلى المؤلفات التى يحسن بهم أن يطالعوها ليوفوا الموضوع الذى يعالجونه حقه من البسط والتفصيل ، وتكاد تكون حرية أستاذ الأدب مقيدة إلى حد بعيد ، لأنه لايستطيع أن يلقن طلابه مبدأ أدبيا لم تقره الحكومة فى برامجها الرسمية ، ويحق للطلاب أن يناقشوا أستاذهم فيما يطرحه عليهم من آراء ، وأن يجادلوه مجادلة علمية ضمن الآداب اللازمة بين أستاذ وتلاميذه .

والحقيقة أن التربية الأدبية لايتلقاها الروسيون فى المدارس بل فى النوادى ، لأن المدارس تعنى بتهيئة عمال لا كتاب ، وقد ينهى الطالب الروسى دراسته الثانوية والعالية ، وهو ملم بالأدب من شعر ونثر كل الإلمام ، ولكنه لايزاول الأدب كمهنة إلا بعد خروجه من المدرسة ، وبعد أن تقر أهليته لذلك هيئة النادى الذى ينتسب إليه .

ولايبعد أن يتحرر الأدب الروسى مما يعوقه من العراقيل ، عند ماتستقر الحال فى « الفردوس الأرضى » ، ويصح للحرية الشخصية تلك الأهمية التى نشهدها فى فرنسا وأمريكا ، وربما كان هذا العهد قريباً أكثر مما يتصوره الأدباء الروسيون أنفسهم .

[حلب] إبراهيم شموش